٢- الشرق والغرب فى الشعر الأندلسى

لابد لنا ـ قبل تناول أى موضوع يتصل بالأندلس الإسلامى ـ من الإجابة عن سؤال ذى شطرين، أولهما: ماذا أعطى الأندلسُ الإسلامَ ؟ والثانى: ماذا أخذ الأندلسُ من الإسلام ؟.

والإجابة عن هذين السؤالين ليست بالعسيرة فيما يتصل بالشعر، فقد قدَّمت إسبانيا للإسلام فنها الشعرى الخاص بها، وهو فن الأزجال والموشحات التى درسها «خُليان ريبيرا». وأما الإسلام فقد أعطى الأندلس الشعر القديم، شعر القصائد الذى نشأ فى الصحراء. ويصور لنا هذه الحقيقة الأخيرة ما تذكره المراجع العربية من أن عبد الرحمن بن معاوية الأندلسى، عندما دخل الأندلس قادمًا من الشام، نظر إلى نخلة مفردة فى «منية الرصافة» بقرطبة وقال:

يا نَخْلُ أنتِ غريبةٌ مِثْلِى ... فى الغربِ نائيةٌ عَنِ الأَصْلِ

فَابكِى، وهَلْ تَبكى مكيَّسةٌ ... عجماءُ لم تُطْبَعْ على خَبَلِى

لو أنَّها تَبكى، إذنْ لَبكتْ ... ماءَ الفراقِ ومنبتَ النخلِ

لكنَّهـا ذهلتْ، وأَذْهلَنى ... بُغْضِى بنى العباسِ عَنْ أَهْلِى[1]

ولم يكن الأمير ونخلته ـ فحسب ـ هما الغريبين عن الأندلس، بل كان الشعر الذى خاطب به النخلة غريبًا أيضًا.

---

(١) ابن الأبار: «الحلة السيراء»، (طبعة دوزى، ليدن ١٨٤٧- ١٨٥١م) ص ٣٤. وقد اكتفى المؤلف بإيراد البيت الأول مترجمًا فى سياق كلامه، فرأيت أن آتى بالأبيات الأربعة على توالها.

وإنه لمن العسير أن نتبين الخيوط المشرقية من الخيوط المغربية فى نسيج الشعر الأندلسى الدقيق، أجل! من غير الميسور لنا كذلك أن ننصت إلى الأنشاد الأندلسية ونفصل منها الأصوات الإسبانية الصِّرْفة عن غيرها، ويجمل بنا لهذا أن ندع هذه المهمة ـ الشاقة المحببة فى آن واحد ـ لمن يأتى بعدنا من أهل العلم، إذ إنه من العسير علينا اليوم أن نصل فيها إلى رأى حاسم، وحسبنا الآن الإشارة إلى الصعوبات التى تعترض طريق الوصول إليها والتنبيهُ إلى وجوه الحذر الدقيق التى يتعين على المتعرض لها أن يأخذ نفسه بها. لابد ـ أولاً وقبل كل شىء ـ من الإحاطة بآثار الشعرين الأندلسى والمشرقى جميعها إحاطة مفصَّلة بالغة الدقة، ولم يُدرس هذان الميدانان إلى الآن دراسة كاملة، بل بقى الكثير من ثمراتهما دون نشر، وعلى فرض أن هذه الدراسة قد تحققت على وجه من الوجوه يومًا ما، فإن تمييز عناصر هذا عن عناصر ذاك لابد أن تكون مهمة شائكة جداً. فمن الواضح البيِّن مثلاً أن الشاعر الأندلسى إذا أنشد شعرًا يتغنى فيه بأشياء مشرقية أو بدوية (كالصحراء أو الجمل أو المنازل التى رحلت الحبيبة عنها) فإنه يأخذ عناصر شعره فى هذه الحالة من جوانب نفسه ومن طبيعة جنسه، لأن هذه العناصر مقتبسة من عالم قومه المثالى أو الأسطورى. ولا يمكن تجريد شعره من هذه العناصر، ولا يمكن كذلك أن نحلل هذا الشعر إلى مواده الأولى ونقول: هذا أخذه من تراث أجداده العرب القدماء، وذلك ابتكره بنفسه أو استوحى فيه طبيعة الأندلس، لأن العنصرين متداخلان متشابكان تشابك اللُّحْمَة مع السَّدَى. وهذا يشبه ما سيحدث فيما بعد عندما عادت إسبانيا إلى النصرانية وارتدَّت إلى عالم الغرب: سيتحدث شعراء الإسبان فى قريضهم عن أثينا أو الأوليمب، وماذا يبقى من الشعر الإسبانى فى عصره الذهبى إذا نحن حذفنا منه ما فيه من إشارات ميثولوجية لأنها إغريقية رومانية؟ وإذا نحن استبعدنا منه ما فيه من محاكاة للإنجيل أو اقتباسات منه وصفَّيناه من العناصر التى أخذها من الشعر التَّسْكانى؟ وماذا يبقى من الشعر الإسبانى الأمريكى[1] إذا نحن استبعدنا منه ما استعاره

(١) La poesia hispano- americana هو الشعر الذى قاله شعراء بلاد أمريكا اللاتينية التى تتكلم الإسبانية كالأرجنتين وبوليفيا وبيرو والإكوادور. وكان أولئك الشعراء يستلهمون الشعر الإسبانى كما كان شعراء الأندلس يستلهمون شعر العرب وينسجون على منواله.

قائلوه من الشعر الإسبانى؟ هذا فضلاً عن أنه لابد من الحذر مما يعرض فى مثل هذه الحالات من إسراف بعض الشعراء فى التأثر بأصلابهم الأولى التى انحدروا عنها. والحقيقة أن تقسيم الناس إلى أجناس متباينة إنما هو مجرد وسيلة مقبولة تمكّننا من تفسير الظواهر التاريخية، وأمّا تعرُّف أصول هذه الأجناس وطبائعها الخاصة فأمر عسير لا يمكن تفصيله، وما يقال فيه أَدْخَلُ فى باب الاعتساف، وليس هناك أعسر من الكشف عن العناصر الدخيلة فى تركيب دماء الشعوب وطبائعها.

لهذا كله سنكتفى من مطلبنا هذا بذكر بعض الحقائق الخاصة بالتاريخ الظاهرى[1] للشعر الأندلسى.

* * *

(١) يريد بذلك أنه سيكتفى بذكر التطور العام لهذا الشعر وإيراد خصائصه الظاهرة وموضوعاته الغالبة عليه دون تعرض لتحليل مادة الشعر نفسه.